

## الدكتور شبلي شميل

علمه

البحث في علوم الفقيه الكرم الدكتور شبلي يُنظر فيه أولاً إلى علومه الطبية وما جرى عليه من الأساليب في معالجة المرضى والجرحى والنفاس لأنه كان طبيباً وجرّاحاً ومولداً واضطرب أن يمارس كل فروع الطب المحلي أي الطب الباطني وطب العين والاذن والانف والخلق والجلد ويمثل التسلّيات الجراحية على أنواعها من صغيرة وكبيرة لأن الإغناء أي الاختصاص بفرع مخصوص من فروع الطب كان نادراً في هذه البلاد حينما خرج لتطبيب ولعله مارس طب الأسنان أيضاً كما جرت عادة الأطباء حينئذٍ ولم يكن بذلك بل فنس عن بعض الكتب الطبية القديمة كفصول بقراط وأرجوزة ابن سينا وشرحها وتشرها وأنشأ أكبر مجلة طبية باللغة العربية وهي مجلة الشفاء وكان يحررها كلها ولا بد لنا من ترك البحث في علومه الطبية إلى أحد أخوانه الأطباء والانتصار على علومه البيولوجية والاجتماعية العلماء فريقان فريق يبحث ويحقق حتى يكشف تاموماً طبيعياً تبي عليه الأحكام أو حقيقة عليّة تقوم عليها القوائد كما حقق نيوتن مكتشف ناموس الجاذبية ودارون مكتشف ناموس الانتخاب الطبيعي وباستور مكتشف أسباب الاختيار والفساد وسنديف مكتشف ناموس الدوري في الكيمياء وفريق يتناول هذه التوايس والحقائق ويبني عليها علومها واسعة النطاق أو يفسر بها الأفعال الطبيعية والأعمال الانسانية كما فعل هكلي وبنسر ولستر وبوانكاره وغستاف لبون وكوخ وفرخو وكثيرون غيرهم من الذين أقادوا نوع الانسان فوائده لا تقدر والنفاه الأولون من أهل النظر في الناب والآخرين من أهل العمل وقد بقنصر عملهم على تعميم العلوم وترقيتها فيها وشناذها وسيلة لنفع الانسان ولقد كان الدكتور شبلي من هذا الفريق الأخير لأنه تناول مذهب الشوء وترجم كتاباً مفصلاً فيه وهو شرح بجزر عن مذهب دارون ثم توسع في هذا الموضوع وطبقه على كل ما في الكون حاسباً اياه وسيلة لغاية سامية وهي اصلاح حال المجتمع الانساني كما سيجي ولو أتيج له أن يخدم بلاده في منصب سياسي لادخل فيها اصلاحات كثيرة صحيحة وقضائية وتعليمية واجتماعية لان مذهب الشوء لا يهتم في تفسير تولد انواع الحيوان والنبات بعضهما من بعض بل يتناول تولد الاخلاق والشرائع والقوانين وكل اعمال البشر وقد اهتم كثير من اصداقائه بادخاله مجلس الاعيان اللبناني حينما كنت تترقب من ذلك المجلس أكبر

تقع ليلاد المثانية فنشأوا ولو فنجحوا وهو يكره انداجة لاحياء ما اصاب صدقته السيد عبد الحميد ازهر اوي رحمة الله عليه مع ان هذا كان انى التتية اميل حتى انه كان يوقع المقالات التي دافع بها عن الدكتور شميل في جريدة ابو بد باسم مستعار خوفاً من السنة الناس واذا قد تمهد ذلك فنظر اولاً فيها كتبه في مذهب الشراء ثم يتعلّق بعلم الاحياء وثانياً في تطبيقه هذا المذهب على علم الاجتماع بوضع معانيه  
علم الاحياء او العلوم البيولوجية

ذكر الدكتور شميل في مقدمة كتابه فلسفة الشراء والارتقاء انه سمع بمذهب دارون وهو يدرس الطب في المدرسة الكلية سنة ١٨٧١ قال « سمعت ولا اذكر كيف سمعت انه قام رجل يدعي ان اصل الانسان من القرود في اقر حقيقة هذا القول ولم يكن في تعليم المدرسة ما يحتملي على التبصر فيه . وخاصة ما اذكر اني لم اسمع به حتى اظهرت اثنوازي منه ومن قائله الذي اعتبرته حينئذ دعياً ما خالف الأ ليعرف ولا عجب فان للكيفية التي ذكر في فيها والتي يذكرها دائماً خصومة من ان القرود اصل الانسان لا يمكن ان تحدث في سامها لأول مرة وهو مشرب بالا اعتقادات المخالفة الأقولاً ولو ان نوع الانسان من هو اعط من القرود بكثير . وهو سلاح يفتر به خصوم هذا المذهب لتخريبه والأ فذهب دارون لا يقول ان القرود اصل الانسان وان الحمار اصل الفرس بل ان الانسان والقرود والفرس وسائر الاحياء من اصل واحد في نشوئها من مواد الطبيعة ويجرد قواها وقد تغيرت تبعاً لتأثيرات المطابقة حتى بلغت مبالغها الآن بالانجاب الطبيعي » ولكن ما فرمته عند مباحث اياه عاد فثبت بعض اصوله في خطبة التبتية التي تلاها حينما قال شهادته الطبيعية في صيف تلك السنة وموضوعها « اختلاف الحيوان والانسان بالنظر الى الافليم والنداء والقرية » . وألقى الذي لا مرة في ايت بعض عوم المدرسة الكلية التي تعلمها كعلم النبات وعلم الفسيولوجيا وعلم التشريح يري دارة مشابهة تامة بين انواع النبات وانواع الحيوان فانواع النبات تجري في تركيبها ونموها ونضورها واورثها وازهارها وانماها على اساليب متماثلة او مشابهة وتغير اطوارها بتغير الافليم وكذا الحيوانات على اختلاف انواعها . واذا نظرنا الى العظام في كف لانسان وكف القرود وكف انكب وزعنفة النعمة والدلفين وجناح الخفاش لم يسمنا الأ القول بانها من اصل واحد او انها مكونة على نسق واحد . والمرجح عندنا انه كان هذا النوع الذي تعلمها الدكتور شميل في المدرسة الكلية اليد الطولى في تهيئة عقله لقبول مذهب الشراء حالما اطلع على تفاصيله



(١) كف الانسان (٢) كف اشورلا (٣) كف الاوران  
 (٤) كف النكب (٥) رعنفة الفصمة (٦) رعنفة الدلمين  
 (٧) جناح الخفاش (٨) كف الخلد (٩) كف الاورنيشورنكوس

مقتطف مارس ١٩١٧

امام الصفحة ٢٢٦

200

100

50

ثم ان الدكتور شمبيل صرح في مقدمة الطبعة الثانية من شرح يجتر التي صدرت منذ سبع سنوات انه لم يلبث ان غادر المدرسة الكلية حتى صار مذهب النشوء موقفاً انكارياً وموضوع حديثه وغرضه في كل كتاباته . ولم يجد حيثئذ ادى صعوبة في تطبيقه على العلم ما يربى اليه قبل ان يطلع على مؤلفات الغلاة فيه كيبكل ويجتر . وعلم ذلك بقوله ان علوم القابلة في الطب تساعد كثيراً على ذلك وبان تربيتة المدرسية لم تسمه بطاقتها فان اعتلال صحته في حدائته لم يسمح له بان يكون من مخرجي المدارس في ما خلا الطب ولم يقرأ شيئاً من العلوم الكتابية التي يقولون انها توسع العقل الى ان قال « واي شيء الله بل افيد من معرفة تحويل المادة وتحويل قواها فيها ومعرفة انها شيء واحد لا تبدأ له حركة - الفة في الجلد وانتخاب في النبات وادراك في الحيوان وازادة في الانسان على اختلاط في آفاقها معها ما شئت : حياة او حرارة او كهربائية او نوراً او حركة او جاذبية او شوقاً او حباً فهي واحدة في الجوهر وان اختلفت في المظهر » وذلك بعد ان قال في مقدمة الطبعة الاولى التي انشأها سنة ١٨٨٤ ما نصه

« واعلم ان الانسان على رأي هذا المذهب طبيعي هو وكل ما فيه مكتسب من الطبيعة . وهذه الحقيقة لم يبق سبيل الى الريب فيها اليوم وتواصر على انكارها من لا يزال . فعول العالم القديمة راسخاً في ذهنه رسوخ النقش في الحجر فالانسان يتصل اتصالاً شديداً بعالم الحس والشهادة وليس في تركيبه شيء من المواد والقوى يدل على اتصاله بعالم الروح والغيب فان جميع العناصر المولف منها موجودة في الطبيعة وجميع القوى التي فيه تعمل على حكم قوى الطبيعة ثم كالحيوان فيسيولوجياً وكالجلد ككاهياً والفرق بينه وبينها فقط بالكتابة لا الكيفية والصورة لا الماهية والعرض لا الجوهر . فالانسان يحس والحيوان يحس والانسان يدرك والحيوان يدرك ونواميس التغذية واحدة فيهما . غير ان الانسان يدرك اكثر من الحيوان لانه اكل منه كما ان الحيوان العاقل يدرك اكثر من الحيوان الذي دونه . وعناصره كعناصر الجملاد لتفاعل وتتركب وتتحلل وتتحرك وتولد حرارة والحياة كلها احتراق »

هذه خلاصة ما قاله في علم الاحياء وهو قول جماعته كبيرة جداً من العلماء الطبيعيين البيولوجيين ولكنه ليس قولهم كلهم الا ترى ان وليس قسم دارون في مذهب النشوء يستثنى الانسان لان بحثه الطويل الذي وصله الى استنتاج مذهب النشوء مستقلاً عن دارون اوجب عليه ان يستثنى الانسان وينسب نشوءه الى قوة غير القوى الطبيعية المعروفة . وشبهه جماعة كبيرة من اشهر علماء القرن الماضي وبعض علماء القرن الحاضر

ولم يكتب الدكتور شميل بمناسبة العلماء الذين لم يرد في انكون غير المادة والقوة بل تابع  
ايضا العلماء الذين قالوا ان ليس فيه غير القوة وان المادة حادثة من حالات القوة لكن العلماء  
الطبيين الذين اثبتوا بالتجارب ان المادة قوة مثل الاساتذة طمسن وستوني ومنفورد  
وكردكس ولديج اكثرهم من المعتقدين بوجود الارواح مستقلة عن المادة وكلهم من  
المعتقدين بصحة مذهب دارون ولكنهم لا ينفون وجود الخالق بل يقولون كما قال مطران  
كارليل وهو اذا عدت صنائع الساعة حكيمًا ماهرًا فالذي يصنع ساعة تصنع ساعة اخرى احكم  
وامهر . اي اذا كان الخالق اودع في المادة او في القوة قوة تجعلها تولد العناصر والمركبات  
الكيميائية والنبات والحيوان حتى الانسان فذلك ادل على عظمته وحكمته وقدرته مما لو فرضنا  
انه يعني يوماً فيوماً يخلق كل نبات وكل حيوان وكل انسان

ولا يخفى اننا نحن المشاركة لم نصل حتى الآن الى البحث العلمي المبني على التجارب  
الكثيرة فلا نعرف احدًا من ابناء هذا القطر والقطر السوري بحث بحثًا استثنائيًا طويلًا  
في طبائع النبات والحيوان كما فعل كيتيه ولا مارك دارن واناسز ودارون وولس وهو كمر  
وهكلي وسيفار ولا في تحليل المواد وتركيبها وتنوع عناصرها كما فعل لاوازيه ودافني  
وفراداي وكلمن وستوني وكوري ورمزي ولديج وذر فوردي حتى يحق له ان يقول انه وصل  
الى هذه النتيجة او تلك بعد البحث والتحري . ولما نحن ننتفع على مباحث هؤلاء العلماء ونقتنر  
منها ما نرضاه عقولنا حسب اعتمادها وما فيها من قوة الاستدلال . وهذا عين ما فعله  
الدكتور شميل . لكنه لم يكتسبها تعلمه وانتفع به بل توسع فيه وبذل جهده وما له في  
نشره باللغة العربية وجعله اساسًا يبني عليه غيره من التعاليم الاجتماعية فترجم كتاب يختار  
في هذا الموضوع وقدم له مقدمة مسبهة تكاد تكون خلاصة الكتاب . ويختار عالم طبيعي  
قال بتولد الانواع قبل نشر دارون كتابه يخصص سنوات ونسب هذا التولد الى فعل  
الاحوال المختلفة في سطح الارض من جهة والى تغير تدريجي في الجراثيم من جهة اخرى  
ولكنه لم يفصل فعل هذه الاسباب كما ينبغي . وقد وافق دارون في كل فصول مذهبه  
لكنه خالفه في امر جوهرى وهوان دارون صرح بان الخالق نفع نسمة الحياة في الحي  
الاول الذي تولدت الاحياء منه ويختارنى ذلك وقال بالتولد التدريجى واخفى يقال ان شرح  
يختار يتناول خلاصة ما كان معروفًا في عصره عن مذهب الشوره وعن ارتقاء الفلاسفة من الدم  
عصورها الى ذلك الحين وقد صرح فيه بان لقوة المادة غير منفصلين كانهما شيء واحد  
وما لبثت ترجمة الدكتور شميل لهذا الكتاب ان انتشرت حتى قام المترجم الاستاذ

ابراهيم الخوراني ورد عليه في رسالة سماها مناهج الحكماء على نفي الشوهد والارتقاء فاجابه  
الدكتور شميل واجاب غيره من الذين انتقدوا مذنب الشوهد برد مسح سماه الحقيقة الفتح  
بيتهن من قول حكيم العرب وابلغ شعرائهم ابي العلاء المعري وهما

بربك ايها الفلك المدارُ اقصدا المسيرام اضطرارُ

سيرك قل لنا في اي شيء في الهامنا منك انبهارُ

والبحث في الحقيقة بعضه نظري وجدلي وأكثره علمي مبني على حقائق علمية بعضه  
حديث وبعضه قديم استنبطه من كتب القدمين مثال ذلك ما نقله عن بقراط اليوناني  
ابي الطب حيث قال في كتاب الالهوية والنباه والبلدان « اني اغص النظر عن الام التي  
تختلف قليلاً لها بينها واتصغر على ذكر الاختلافات العظيمة الناشئة اما من الطبيعة واما من  
العادة واذكر اولاً جبل الميكروسفال ( ذا الراس المتقابل ) فان هذا الجبل لا يوجد جبل  
يشبهه في تكوين الراس ٠٠٠ وفي الاصل كانت المادة سبباً لطوله واما الآن فقد صار  
للطبيعة يد في ذلك واصل هذه المادة انهم يعتبرون طول الراس من علامات النباله واول  
ما يولد الطفل اذ تكون اعضاءه مسترخية ورأسه ليناً بضبطون الراس بين اليدين حتى  
يتطاول ويشدونه يربط وآلات مناسبة يتقدم بها شكله الكروي وتزيد في طولهِ وهذا  
التكوين نشأ في الاصل عن العادة ثم صار مع الزمان طبيعياً لا حاجة فيه الى العادة ٠٠٠  
فاذا كان الاباء الصالح بلدون اولاداً صالحاً وذو العيون الزرق بلدون اولاداً بعيون زرق  
مثلهم فما المنع ان اناساً طوال الرؤس بلدون اولاداً طوال الرؤس نظيرهم » وما نقله عن  
الفيلسوف الاجتماعي العربي ابن خلدون وهو قوله « انظر الى عالم التكوين كيف ابتدأ من  
انعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بدائمة من التدرج آخر افق المعادن متصل باول افق  
النبات وآخر افق النبات متصل باول افق الحيوان ومعنى الاتصال في هذه الكائنات ان آخر  
افق منها مستمد بالاعتماد الشريب لان يصير اول افق الذي بعده واتسع عالم الحيوان  
وتعددت انواعه وانتفى في تدرج التكوين الى الانسان صاحب الفكر رازوية ٠٠٠ وكثير  
من مباحث الحقيقة فلسفي كالكلام على الجواهر الفرد ووحدة العناصر وقدم المادة واصل  
الحياة وقد تابع فيه اكابر العلماء الاوربيين منه في المنتصف مقالات كثيرة من هذا القبيل  
في المواضيع الطبيعية والاجتماعية كالحياة والحس وانواعه المختلفة واصل الاجسام الحية وحياة  
الجناد والادوار الجليدية وتأثيرها في الانسان والاجتماع البشري والعمران والمرأة والرجل  
وهل يتاويان والاذكار والابنات ومناجاة الاحلام وفتح الاوهام

والخلاصة انه بسط مذهب النشوء فيما ترجمه وكتبه فيه احسن بسط وهززمه بكل الادلة العلمية التي تذكر لتبرز مذهب النشوء حقيقى بذلك لانه غير محصور في نشوء الحيوانات بعضها من بعض بل يتناول نشوء كل شيء فقم الحديد او النحاس او الذهب الذي لكتب به الآن نشأ من قز الغاب الذي كنا نكتب به في صابنا . والمركبة البخارية التي تسير بنا الآن بسرعة الضخمة نشأت من المركبة التي يجرها الخار او البغل . والمحراث البخاري الذي يحرث عشرين فدانا في النهار نشأ من المحراث الخشبي الذي يجره الشرر وهذا من حرد اعترف كان قدماه المصريين يشقون ارضهم به . وقس على ذلك كل العلوم والفنون والشرائع والقوانين والمعادن فان نشوء النشوء يشتملها كلها ولكن عقل الانسان انشأها

### العلوم الاجتماعية

لو كان غرض الدكتور شميل مما ترجمه وكتبه في مذهب النشوء مجرد افناع القراء بان انواع النبات والحيوان تتسلسل بعضها من بعض لذهب اكثر تعبى سدى . نعم ان العلم حري بان يطلب لذاته من غير نظر الى الفوائد التي تجني منه ولكن كونه مطلوباً لذاته مرغوباً فيه من غير انتظار فائدة منه لا يستلزم ان يكون عديم الفائدة لانه قد يكون وسيلة لغاية كبيرة . ومن هذه الجهة نظر الدكتور شميل الى مذهب النشوء . فاولاً حسبه مبنياً على العلوم الطبيعية التي هي وسيلة وغاية . وثانياً حسبه اساساً للعلوم الاجتماعية التي قال فيها « ان غايتها الحقيقية اعتبار الانسان في كل مكان اخاً للانسان مما يدعو الى تصالح الامم من فوق حدود الاوطان بل بها تجبى تلك الغاية الكبرى المنتظرة من العلم الاجتماعي الذي هو دين البشرية الحق والتي لا تنبسر في اي تعليم آخر الا وهي التسامح او التساهل الداعي الى التعاون الحقيقي الضروري للسرمان والمبني على معرفة الحق والواجب لا على الرفق والاحسان » اما العلوم الطبيعية كعلم الطبيعة وعلم الكيمياء وعلم المعادن وعلم الحيولوجيا فحسب ارتقاء اوربا واميركا الى الاخذ بها وتوسيعها والاعتقاد عليها وانحطاط الشرق الآن واوربا في الصور الغابرة الى اعرفها . ولاخذ بانصوم النظرية والفلسفية . وقد اضرب سنداً في « ان تلقى مدرسة الحقوق وتفرقت كتب القوانين وكتب الاقتصاد السياسي وسائر العلوم الكلامية وان يوقف تنفيذ برزغرام الجامعة لئلا تزيد معاهد العلوم النظرية واحداً فتزيد الجبري وان يشأ معهد علمي كبير يعلم فيه علم نشوء الارض والاجرام السماوية وعلم الاحداث الجوية والافاليم واختلافها وتغيرها في الانسان وفي السرمان وان يقام على اتقاض مدرسة الحقوق مدرسة للكيمياء والطبيعات والميكانيكات والاراضيات وعلم الفلك وتشاء جامعة

لتعليم التاريخ الطبيعي والاجتماع الطبيعي والاقتصاد الطبيعي ونطقت ذلك عن الانسان والطب وسائر العلوم الحيوية والاشروبولوجية . وان نشأ كتاب في كل مدينة وفي كل حي وفي كل قرية على نسبة السكان يعلم فيها الاطفال مبادئ العلوم الطبيعية البسيطة التي يفهمون منها طيات انشاء الهواء والجماد والنبات والحيوان ويوضع لهم شبه تعليم طبيعي يعلمون منه حقيقة الانسان ومركزه في الارض . ونشأ جرائد تعلم الناس كيف يجب عليهم ان يكونوا نظاماً في اجسادهم وملابسهم وماكلهم ومساكنهم وعقولهم . ونظمهم ان كل نظام حوكم في الارض والسموات في الجماد والنبات والحيوان خاضع لنواميس طبيعية لا تتزعزع وان سيرهم على هذه النواميس يهيئهم عثرات كثيرة في معاشهم صحياً ومادياً وادبياً . يعلمون كل ذلك لكي يعلموا ان كل عضو في الاجتماع له حقوق وعليه واجبات وان الاشتراك في المنفعة يفتح له على قدر اشتراكه في العمل وان المكافأة انما هي للاجتهاد لا للصنعة وحينئذ يظهر الفضل الصحيح ويتبين الفضل الكاذب

وكرر البحث في هذا الموضوع مراراً وتكلم عليه تكررأً ونشأ فيه مقالات شتى وبني بجاهر بذلك ان أخريات ايامه فقد قال في آخر رسالة نشرها وسماها الرجحان ما نصه

ارضنا لنهي خزانة علم وهي حقل للعاملين خصيب  
 علمونا ان الحياة جهادٌ ومجال الجهاد فيه رجبٌ  
 علمونا ان الحما من هذا الغير لنا صحبته مكسوبٌ  
 انما نحن مثل اعضاء جسم ان يؤلم فكله مصوبٌ

وكانت مزينة الكبرى بالتنديد بالظالمين وبالغايب على انواعها والمجاهرة بما يستند حقا ونو خالف به جميع الناس سواء كان في السميات او الادبيات او الاجتماعيات . قلعة ولسانه في ذلك بيان . وطالما حبر المقالات السياسية ونشرها في البصير والمقطم وغيرها من الجرائد السيارة يستند بها معاريف الحكماء بما لا يزيد عليه من الصراحة

وقد عاش عيشة الاجتماع الذي فنه فكم آسى فقيراً بلا اجر ولا شكر وكما تناول الدرهم من النبي لمعطيه لتقديره كما حث على انشاء مستشفى للفقراء وبذل في ذلك وقتة الثمين . وضحية ما نأسف عليه ويجب ان يأسف عليه الشرق كله ان بلاده لم تعرف ان تستغني بعقله واخلاقه في حياته كما يجب . فحسب ان تستغني بآثاره ويقوم من ابناءها كثيرون يفتنون خطواته في اجتهاد من اخفيقة والمجاهرة بها